بسم الله الرحمن الرحيم - ثابت عيد - زيورخ في ٢٠-١-١٩٩١

تـحـقيق التـراث

ثابت عيد

كلما أمعن الإنسان في دراسة المصادر
الأصلية الأوروبية، ازداد تصوره أن
هذه النهضة المزعومة أشبه ما
تكون بالولد الذي نُسِب إلى
غير أبيه الحقيقي.
فؤاد سزكين

١- لفظ »التراث« مشتق من فعل ورث، يرث. فتقول: ورث فلانا ورثا وإرثا وإرثة وتراثا: أي انتقل إليه مال فلان بعد وفاته. وتقول: ورث المال والمجد عن فلان: أي صار مال فلان ومجده إليه. والتراث هو ما يخلفه الميت لورثته. وهو أيضا مجموع الآراء والأنماط والعادات الحضارية المتنقلة جيلا إلى جيل. وما نقصده في هذا السياق هو كل ما تركه لنا العرب من مخطوطات تصلح للنشر ولايزال معظمها قابعا في مختلف مكتبات العالم في انتظار من يحققها وينشرها.

٢- يذهب بعض أهل الجهل من قومنا إلى القول بأن ما تركه لنا العرب الأولون من تراث لا قيمة له ولا فائدة فيه. ولو كان هذا الرأي واردا علينا من الخارج، صادرا إلينا من الغرب، لقلنا إن أهل الغرب يسعون سعيا حثيثا إلى بتر كل ما يربط حاضر العرب بماضيهم، وقطع كل علاقة تصل بينهم وبين جذورهم، حتى يسهل ربطهم بحضارة الغرب، ويندثر تاريخهم، وتزول آثارهم من الوجود. بيد أن هذا الرأي ليس صادرا عن أهل الغرب، ولكن عن أهل الجهل من مواطنينا. ونحن نبين فساد هذا المذهب، وضلال أصحابه، لعلهم يتبينون الحق، ويدركون موضع الخطأ. وأول ما نبدأ به قولنا هو التنبيه بأن هذا التراث الذي خلفه لنا العرب الأولون واللاحقون هو بمثابة جذورنا الثقافية وأصولنا التاريخية. وكما يقول إبراهيم مدكور فإنه: »لكل ثقافة تراثها، ومن لا ماضي له، لا حاضر له«. وإنه لشيء غريب ومحزن حقا أن يخرج علينا أهل الجهل بهذا الرأي في هذا العصر بالذات ويشككون في قيمة التراث. ذلك أن هذه المسألة كانت في مطلع هذا القرن من الأمور المحسومة التي لا نقاش فيها، ولا جدال في أهميتها. فقد قام أحمد لطفي السيد وأحمد أمين وإبراهيم مدكور وعبد الرحمن بدوي وكامل حسين وفؤاد سيد وأمين الخولي وأحمد فؤاد الأهواني وإبراهيم الأبياري والسـيد أحمد صقر ومحمد علي النجار وعبد السلام هارون، وغيرهم من المحققين المجتهدين والباحثين المخلصين من العرب - فضلا عن أساتذة الغرب الذين نعترف بفضلهم ونقدر جهودهم - بنشر عدد كبير من كتب التراث التي كان لها أثر بعيد في تعميق فهمنا لتاريخنا، وبعث نهضة ثقافية نشطة في المشرق العربي. فقد كان أعلام الفكر العربي في أوائل هذا القرن على دراية كاملة بأهمية الدور الذي تلعبه كتب التراث في الكشف عن حضارة الأسلاف، وتوثيق الصلة بثقافتهم، وإرجاع الفرع إلى الأصل، وتشييد الدعائم الصلبة التي نستطيع أن نبني عليها نهضتنا الحديثة. وانطلاقا من هذا الاقتناع، وصدورا عن هذه الأصالة، نشطت حركة تحقيق كتب التراث في مصر في أوائل هذا القرن. وكانت النظرة السائدة وقتئذ هي أن تحقيق كتب التراث ودراستها لابد لنا منهما إذا شئنا أن نعرف هويتنا، ونحدد أصلنا، ونرسم معالم مستقبلنا. ثم مر علينا الزمان، وولى عصر أعلام النهضة الحديثة في مصر، وتدهور مستوى التعليم فيها، وازداد الانحطاط وتفشى الجهل، فإذا بهؤلاء الحمقى يخرجون علينا ليشككوا في قيمة التراث، ويقللوا من شأنه.
ونحن نرى أن هؤلاء الناس لم يزعموا ما زعموه إلا عن جهل أصلع وحماقة بالغة. ذلك أن سبب تقليلهم من شأن كتب التراث يرجع ببساطة إلى جهلهم بهذا التراث، وعدم إلمامهم به. وهذا موقف يشبه، بل يطابق، موقف أهل الجهل من اللغة العربية الفصحى الذين وصفهم طه حسين بقوله: »والشيء المحق هو أن الذين يضيقون باللغة الفصحى وينفرون منها ويفزعون إلى ما يسمونه اللغة العامية، لا يعرفون اللغة العربية الفصحى حق معرفتها قبل كل شيء لأنهم لم يتعلموها كما ينبغي أن يتعلموها«. وكذلك فإن الجهل بالتراث يؤدي إلى النفور منه، والبعد عنه، والتقليل من قيمته، والدعوة إلى إهماله. ولنا في تطور نظرة زكي نجيب محمود إلى التراث أعظم مثال يبين وجهة نظرنا، ويدحض مزاعم أهل الجهل. فعندما كان زكي نجيب محمود يجهل التراث العربي، كان شديد النفور منه، دائم الإلحاح بضرورة بتره من حياتنا الثقافية! ولكنه لما اطلع على هذا التراث وتعمق فيه، اتضح له جهله السابق وخطأه البالغ. فكان يقول: »... انه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علما وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم«. ويعلق زكي نجيب محمود على هذا الموقف بقوله: »بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة، وربما كان دافعي الخبيء إليها هو إلمامي بشيء من ثقافة أوروبا وأمريكا، وجهلي بالتراث العربي جهلا كاد أن يكون تاما، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا«. ونحن نأمل أن يتعظ أهل الجهل من تجربة زكي نجيب محمود ويتعلموا منها. وقد عانى يوسف زيدان من موقف أهل الجهل من التراث، وسماهم »المتعالمين« وهم من ادعوا العلم وهم جاهلون. ويهمنا أن نذكر رأي يوسف زيدان عن ضـرورة تـحقيق كتب التراث، ونشرها نشرة علمية، حيث يقول: »... وعملية النشر (نشر كتب التراث) هذه ضرورة ثقافية ملحة من عدة وجوه: أولها لأنها تتيح نظرة إلى الماضي، نفهم منها أحوال

الحاضر. وثانيا لأنها تعمق البحث التاريخي في شتى المجالات وترسيه على أسس حقيقية. وثالثا لأنها تسهم في بناء جدار ثقافي يحافظ على استقلال الشخصية القومية في وقت تسعى فيه الوسائل الإعلامية لطمس هذه الاستقلالية. ورابعا لأنها تكشف عن آليات الفكر العربي ومناهجه، بما يمكن معه وضع صياغة نهضوية لأمة تعيش بلا منهج محدد. وخامسا لأنها أحد مظاهر الاهتمام بالذات الواحدة المخترقة فترات الازدهار والانحطاط ... وسادسا لأنها تكشف عن جذور قضايانا المعاصرة، خاصة قضايا التحزب السياسي والعقائدي وتطور النزعات العصبية ...«. وهذا قول حسن وتلخيص مفيد، وسوف نلقي في السطور التالية مزيدا من الضوء على بعض جوانب هذه القضية المصيرية.

٣- كان لأساتذة الدراسات الإسلامية الأوروبيين فضل السبق في نشر تراثنا، بصرف النظر عن اختلاف أهدافهم من ذلك عن المقاصد التي نرجوها - نحن العرب - من نشر كتب تراثنا. ونذكر هنا أسماء بعض الكتب التي قام أساتذة الغرب بنشرها كمثال على جهودهم في هذا الحقل، واسهاماتهم في بعث الثقافة العربية:

١- كتاب الدين والدولة، لعلي بن ربن الطبري، نشره مرجوليوث ومنجانا.
٢- كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، نشره أوجست ميلر.
٣- كتاب تلخيص أعمال الحساب، لابن البنا المراكشي، نشره ارستيدس مار.
٤- كتاب تاريخ قضاة الأندلس، للنبهاني، نشره ليفي بروفنصال.
٥- كتاب العقائد النسفية، لمعين الدين النسفي، نشره وليام كيورتسن.
٦- كتاب كشف المحجوب، لأبي يعقوب السجستاني، نشره هنري كوربان.
٧- كتاب جوامع علم النجوم والحركات السماوية، لأبي العباس الفرعاني، نشره جوليوس.
٨- كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، للحريري، نشره توربكه.
٩- مختار رسائل جابر بن حيان، نشره باول كراوس.
١٠- كتاب البديع، لابن المعتز، نشره كرتشكوفسكي.
١١- المقدمة، لابن خلدون، نشرها اتيين كانزمير (باريس ١٨٥٨).
١٢- كتاب مقالات الإسلاميين، للأشعري، نشره هلموت ريتر.
١٣- كتاب فرق الشيعة، للنوبختي، نشره هلموت ريتر.
١٤- ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل، نشرها ديتريصي.
١٥- كتاب فتوح البلدان، للبلاذري، نشره دي خويه (١٨٦٣-١٨٦٦).
١٦- كتاب الأفعال، لابن القوطية، نشره اجنتسيو جويدي (ليدن ١٨٩٤).
١٧- كتاب فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين الكبرى، نشره فريتز ماير.
١٨- معجم البلدان، لياقوت الحموي، نشره فستنفلد (١٨٦٦-١٨٧٣).
١٩- كتاب التعرف على أهل التصوف، للكلاباذي، نشره أرتور آربري.
٢٠- كتاب المواقف والمخاطبات، للنفري، نشره أرتور آربري.
٢١- كتاب عجائب المخلوقات (ومعه آثار البلاد)، للقزويني، نشرهما فستنفلد.
٢٢- السيرة، لابن اسحاق برواية ابن هشام، نشرها فستنفلد.
٢٣- كتاب التعريفات، للجرجاني، نشره جوستاف فلوجل.
٢٤- كتاب جبر عمر الخيام، نشره فرانس فيبكه.
٢٥- كتاب الأضداد، لابن الأنباري، نشره هوتسما.
٢٦- كتاب طبقات الشعراء، للجمحي، نشره يوسف هل.
٢٧- كتاب اللمع، لأبي نصر السراج، نشره نيكلسون.
٢٨- كتاب الانتصار، للخياط، نشره نيبرج.
٢٩- كتاب التيسير في القراآت السبع، للداني، نشره برتسل.
٣٠- كتاب أطواق الذهب، للزمخشري، نشره يوسف همر (١٨٣٥).

إننا لا نهدف من هذه السطور القليلة إحصاء كل ما نشره إساتذة الغرب من تراثنا، فذلك يحتاج إلى عمل قائم بذاته، ولكن قصدنا من ذكر ما ذكرناه من أسماء تلك الكتب إعطاء القاريء نبذة سريعة عما قام به أساتذة الغرب من نشر تراثنا، وتحقيق أعمال أجدادنا. ولو كان هذا التراث لا قيمة له ولا فائدة، كما يذهب أهل الجهل، لما اعتنى به أهل الغرب، ولما أمضى فيه الكثير من علمائهم السنين الطويلة في سبيل تحقيقه ونشره، وهم أكثر الناس حرصا على عدم تضييع وقتهم عبثا، وأشد شعوب العالم بحثا عن المنفعة. ولو كان الغربيون قد رأوا في تراثنا العربي وآثارنا الإسلامية انحطاطا وجهلا، لكان أولى بهم أن ينصرفوا عن هذا التراث ويتجاهلوا هذه الآثار.

٤- إن مطالبتنا بنشر كتب التراث، ودعوتنا إلى الاهتمام بدراسة آثار السلف، لا يعني بأي حال من الأحوال أن هذا هو آخر أهدافنا ومنتهى مقاصدنا. ذلك أن تحقيق كتب التراث، وتوفيرها للدارسين، ونشرها بين المتعلمين، ما هو إلا أول

خطواتنا ومبتدأ جهودنا. فهذه الكتب لابد لنا من درسها جيدا، واستيعابها بطريقة تسمح لنا أن نحقق ما نرجوه منها. وأول ما نرجوه منها هو تعميق فهمنا لحضارتنا، وتأصيل علاقتنا بثقافتنا، وتوثيق صلاتنا بماضينا. يقول زكي نجيب محمود: »أما أن الأمة العربية لا تكون عربية إلا إذا لحقت بثقافتها صفات تبرر هذه التسمية المميزة، ثم لا تكون هذه الصفات مبررة للتسمية تبريرا كافيا، إلا إذا كانت هناك حلقة رابطة بين العربي اليوم والعربي بالأمس ...«. ويتساءل زكي نجيب محمود عن كيفية ايجاد ما يربط ماضينا بحاضرنا، بحيث يمكننا الحفاظ على تراث الأجداد، وفي نفس الوقت لا نجعل هذا التراث يطغي علينا، ثم يقول: »قد يكون الجواب عن هذه الأسئلة قريبا ميسورا عند بعضنا، وهم أولئك الذين يحسبون أن إعادة طبع الكتب القديمة - مهما بلغ الجهد في تحقيقها - فيها الكفاية (...) أما كاتب هذه السطور فلا يرى الجواب عن سؤالنا: 'كيف؟' بهذا القرب كله وهذا اليسر كله، فإذا ما استوت كتب الأسلاف محققة على رفوف المكتبات، فعندئذ 'يبدأ' العمل ولا ينتهي، عندئذ نطالع هذا التراث، ونلم به، لنسأل أنفسنا بعد ذلك: كيف يتاح للعربي المعاصر أن يتابع أسلافه ليسير معهم على خط فكري واحد، فيصبح عربيا بقدر ما كانوا عربا، ويحق له القول في صدق انه الحفيد وانهم هم الأسلاف؟« اهـ.

٥- من الملحوظ أن هناك إهمالا كبيرا، وتجاهلا واضحا لتراث العرب العلمي، وآثارهم الهندسية والطبية والتكنولوجية والفلكية. يقول إبراهيم مدكور: »ويمكن أن نلاحظ بوجه عام أن جهود القرن الماضي وهذا القرن في إحياء التراث تكاد تدور بوجه خاص حول الأدب واللغة أو الحديث والتفسير أو التاريخ، وفي الحضارة الإسلامية أبواب أخرى لم تعالج العلاج الكافي، ولم يكشف عنها بعد بصورة مرضية«.
ونود أن نشير في هذا السياق إلى ظاهرة جديرة بالاعتبار، ونعني بها أن أوروبا قد بدأت في ترجمة العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وقد كانت الترجمات تتم حينئذ عن مخطوطات، وتأخذ هي أيضا صورة مخطوطات، فاختراع الطباعة لم يتم إلا في القرن الخامس عشر الميلادي. ونظرا لأن الأوروبيين كانوا قد أدركوا أنه لا مستقبل لهم ولا نهضة إلا إذا ترجموا العلوم من العربية إلى اللاتينية - وفيما بعد إلى بقية اللغات الأوروبية - وكان هدفهم الأول وقصدهم الأساسي هو نقل هذه العلوم واستيعابها للاستفادة منها والاستنفاع بها، فكثيرا ما كان يحدث أن يقوموا بترجمة كتب عربية في مختلف فروع العلم إلى لغاتهم الأوروبية، ثم يطبعونها - بعد اكتشاف الطباعة - ويتركون الأصل العربي مخطوطا كما هو، دون تحقيق أو نشر. ولماذا يكلفون أنفسهم بذلك، إذا كان أصحاب التراث أنفسهم قد تغافلوا عنه، وأهملوه، وتخلفوا عن موكب الحضارة. أضف إلى ذلك روح العداء المنتشرة بين الأوروبيين تجاه العرب، وكراهيتهم للمسلمين، وتمنياتهم بأن يستمر العرب في سباتهم، ويظلوا راقدين في تخلفهم إلى يوم الدين.
ونحن نذكر هنا بعض الأمثلة على كتب التراث العلمي العربي الهامة التي أدرك الأوروبيون أهميتها، واعتنوا بترجمتها، واستخلصوا الفائدة منها، وبنوا عليها حضارتهم الحديثة، هذا في الوقت الذي لا تزال فيه هذه الأعمال مجهولة لمعظم الدارسين العرب، غير معروفة للمثقفين منهم. فهل يعقل أن يظل كتاب »التصريف لمن عجز عن التأليف« لأبي القاسم الزهراوي (توفي بعد سنة ٤٠٠ هـ) مجهولا للأطباء العرب، غريبا على المسلمين المحدثين، بينما نجد أن الأوروبيين قد قاموا بترجمة هذا الكتاب الفريد في صناعة الطب إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي؟ يقول العالم الفاضل فؤاد سزكين عن هذا الكتاب: »واستنادا على الترجمة اللاتينية أمكن لتاريخ الطب في العهد الحديث أن يدرك المستوى العالي الذي وصل إليه الطب عند المسلمين في القرن الرابع الهجري«. ومازال هذا الكتاب مخطوطا مهملا، لا يجد من العرب المحدثين من يهتم به، ويتولى تحقيقه، وينهض بنشره وإذاعته في الناس.
وهل يعقل أن تظل آثار العرب الخاصة بعلم الفلك وأحكام النجوم مجهولة للعلماء العرب المحدثين، مشتتة بين مكتبات العالم، لا يرعاها الأحفاد، ولا يعلم عنها شيئا الشباب؟ نعم إن هناك بعض الإسهامات المشكورة، والمجهودات الملموسة في تحقيق تراثنا في هذه العلوم من قبل علماء مخلصين، وأساتذة مجتهدين من أمثال عبد الحميد صبره ونبيل الشهابي وجميل صليبا، إلا أن هذه الجهود مازالت متواضعة قليلة، تنقصها النظرة الشاملة، والتخطيط الجيد، والعمل المشترك.
ذلك أننا نريد أن نخرج كل المخطوطات العربية الخاصة بعلم الفلك وأحكام النجوم والآثار العلوية من عالمها المجهول في شتى مكتبات العالم، إلى حيز النور، فنحققها وننشرها وندرسها ونتتبع تطور أفكار الأسلاف من خلالها، ونبحث كيفية انتقال هذا التراث إلى أوروبا، ومدى تأثيره على علمائها. فعلم الفلك العربي قد وصل إلى أوروبا في القرن العاشر الميلادي، واستمر تأثير العلماء العرب على أوروبا في هذا الميدان حتى القرن السادس عشر، إلا أن هناك الكثير مما ينبغي إنجازه وتحقيقه، حتى يمكننا أن نوضح بدقة الحد الذي وصلت إليه هذه العلوم عند العرب، والدرجة التي توقف عندها إبداعهم.
نريد من علمائنا أن يعرفوا كتاب الفرعاني »جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية« الذي أعاد طباعته العالم الفذ فؤاد سزكين عن تحقيق وترجمة لاتينية ليعقوب جوليوس (امستردام ١٦٦٩). كذلك فلابد لنا أن ننهض من سباتنا ونقوم بنشر الأعمال الوفيرة والمؤلفات العظيمة التي خلفها لنا العلماء العرب في علم النجوم، والتي لم يتم تحقيقها ونشرها بعد. ونذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال: »كتاب المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم« للبلخي (توفي ٢٧٢ هـ)، »كتاب صور الكواكب« لعبد الرحمن الصوفي (توفي ٣٧٦ هـ)، »كتاب الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب« لأبي عاصم الثقفي (توفي ٤٠٣ هـ)، وغيرها من الأعمال الكثيرة التي تركها لنا السالفون على أن نطورها لا أن نهملها،

ونحفظها لا أن نضيعـها، وننميها لا أن نوليها ظهورنا.

وفي مجال الرياضيات نذكر جهود العالم رشدي راشد صاحب كتاب »تاريخ الرياضـيات العـربيـة بين الجـبر والحساب« - ولكن عظم التراث الرياضي الذي تركه لنا العرب وكثرته يجعلنا في حاجة إلى جهود آلاف العلماء العرب لتحقيق هذا التراث ونشره، للإسهام في أبحاث تاريخ العلوم عند العرب، وتصحيح المغالطات التاريخية والظلم الذي وقع علينا من قبل مؤرخي العلوم الغربيين، حيث سعى الكثير منهم إلى تجاهل إسهامات العرب، وعدم ذكر جهودهم في تطوير العلوم الإنسانية، وسوف نعود إلى هذه المسألة بعد قليل. أما ما يخص تراث العرب في علم الرياضيات، فيهمنا أن نشير إلى أعمال العالم الفاضل أبي الحسن بن الهيثم (توفي سنة ٤٣٢ هـ) الذي حدد »نقطة الانعكاس في مرآة مقعرة لضياء وارد من جسم معين إلى العين« وذلك بإرجاع هذه المشكلة إلى معادلة جبرية من الدرجة الرابعة. ومن أعمال ابن الهيثم التي نرجو لها رواجا قريبا بين علمائنا: »كتاب في حل شكوك كتاب اقليدس في الأصول وشرح معانيه«، و»كتاب المناظر«، وغيرهما من المؤلفات التي استفاد منها علماء أوروبا في بناء نهضتهم، وتأسيس حضارتهم. ويكفينا أن نشير سريعا أن نصير الدين الطوسي هو الذي أسس حساب المثلثات كفرع مستقل في علوم الرياضيات، وأن الماهاني هو »أول شخص في تاريخ الرياضيات قد وضع معادلة جبرية من الدرجة الثالثة«، وأن بني موسى بن شاكر الثلاثة قد نقدوا كتاب المخروطات لابلونيوس وصححوه. يقول فؤاد سزكين عن انجازات العرب في العلوم الرياضية: »... إنهم أتوا بالبرهان على كثير مما عرضه الإغريق من مسائل وقضايا دون برهان. وإنهم وضعوا مسائل جديدة لم تلتفت إليها أنظار الإغريق، وإنهم صححوا أشياء كثيرة مما وجدوه عند الأسلاف، وإنهم طوروا كل ما ورثوا عن الأسلاف ...«.
ولا يختلف الحال في ميدان التكنولوجيا العربية، ونرجو من القارئ ألا يتعجب عندما يقرأ تعبير »التكنولوجيا العربية«، فقد كان للعرب اسهاماتهم الفريدة وأعمالهم المتميزة في هذا المجال، ولسنا من قصر النظر بحيث نعتقد أن الأوروبيين قد بدؤوا ثورتهم الصناعية من الصفر، دون أن يكون لتراث العرب العلمي أي تأثير عليهم. وينبغي أن نشير في هذا السياق إلى الجهود المشكورة والأعمال المطبوعة التي أخرجتها جامعة حلب في سبيل العناية بتراثنا العلمي، حيث بدأت منذ عدة سنوات في إصدار سلسلة تاريخ التكنولوجيا العربية. وكان مما أصدرته مؤخرا »كتاب الحيل« لبني موسى ابن شاكر، تحقيق أحمد يوسف الحسن. ولفظ الحيل هنا لا علاقة له بباب الحيل في الفقه الإسلامي، ذلك أن الخوارزمي قد قسم العلوم إلى الفروع التالية: »الفلسفة والعلم الإلهي، والمنطق، والطب، والارثماطيقي، والهندسة، وعلم النجوم، والحيل، والموسيقى، والكيمياء«. وعلم الحيل يقابل اليوم علم الهندسة الميكانيكية. ويطول بنا الحديث إذا استعرضنا تاريخ هذا العلم وتطوره عند العرب، إلا أننا نشير إلى عالمين قد أثرا على العلماء العرب في هذا المجال، قبل أن يصل العرب إلى مرحلة الإبداع والتطوير. الأول هو ايرن (عاش في القرن الأول للميلاد ؟ في الاسكندرية)، وكتب »كتاب الميكانيك« الذي ترجمه قسطا بن لوقا إلى العربية، والثاني هو فيلون البيزنطي (عاش في القرن الثالث قبل الميلاد)، ويُنسب إليه »كتاب في آلات حركات الماء والهواء«. ومرة أخرى نقابل صورة محزنة من صور إهمالنا لتراثنا، وتغافلنا عن ثرواتنا، بينما كان الأوروبيون ومازالوا يسعون إلى هذا التراث، ويترجمونه إلى لغاتهم، ويستخلصون منه الفائدة. فهل يعقل أن يقوم الألمان بترجمة »كتاب الحيل« السالف الذكر إلى الألمانية في الربع الأول من هذا القرن، ثم يترجمه الإنجليز إلى لغتهم في عام ١٩٧٩، وبعد ذلك نفيق نحن من سباتنا، ونصحو من نومنا، ونقوم بتحقيقه ونشره سنة ١٩٨١؟ نهدي هذا المثال إلى أهل الجهل عندنا، لعلهم يفهمون أن الأوروبيين لو لم يجدوا نفعا في كتاب »الحيل« هذا وفائدة تعم عليهم، لما تكلفوا عناء ترجمته إلى لغاتهم، ولما خصصوا له السنين الطويلة والجهود الكبيرة. ولكن أهل الجهل لا يفقهون! وليس هذا إلا مجرد مثال واحد من آلاف الأمثلة الدالة على تخاذلنا وتكاسلنا، وغفلة المسئولين عندنا، وانصراف الحكام عن رعاية العلم وتشجيع العلماء. يقول أحمد يوسف الحسن عن تأثير مؤلفي كتاب الحيل على أوروبا:
»إن تأثير بني موسى على التكنولوجيا الغربية الحديثة لا يمكن قياسه وتقديره بصورة مباشرة، ولكن التقاليد الإسلامية التكنولوجية للمهندسين العرب المسلمين المتمثلة ببني موسى والجزري والمرادي وتقي الدين إلى جانب قائمة أخرى من الأعلام المهندسين الآخرين مثل ثابت بن قرة والخازني ورضوان وغيرهم قدمت بمجموعها للغرب تكنولوجيا ميكانيكية متطورة نسبيا. وجاء عصر النهضة الأوروبية ومن بعده عصر الثورة العلمية ثم عصر الثورة الصناعية، وأخذ الغرب ما قدمته وما طورته الحضارة العربية الإسلامية طيلة سبعة قرون (حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي). ولم تبدأ الثورة التكنولوجية في الغرب من الصفر ولكنها أخذت نتاج الحضارة العربية الإسلامية وانطلقت به كأساس للتقدم الذي قاده العالم الغربي منذ بداية القرن السابع عشر« اهـ.

وقبل أن ننتقل إلى تراثنا الزراعي، لعلنا نجد فيه مايلهمنا لحل مشاكل الغذاء التي تعاني منها البلدان العربية، نود أن نذكر العالم جابر بن حيان وجهوده الجبارة، وإسهاماته الضخمة في علم الكيمياء، ومحاولة الغربيين نكران وجوده، وسعيهم لطمس شخصيته من تاريخ العلوم. ومن ذلك إسفافات باول كراوس صديق طه حسين، حيث جمعتهما موضة غريبة، وتقليعة عجيبة للتشكيك في كل شيء. فشكك الأول في شخصية جابر بن حيان، وفي صحة نسبة أعماله إليه، وتلذذ بالبحث في تاريخ الإلحاد في الإسلام، وتشكك الثاني في صحة الشعر الجاهلي. وقد أثبت البحث العلمي أن تشكيك الأول في شخصية جابر بن حيان لايمكن قبوله، ولا هو مبني على أسس صحيحة، كما تأكد العلماء من صحة معظم الشعر الجاهلي الذي شكك فيه طه حسين. أما أعمال جابر بن حيان، فنرجو أن تظهر قريبا محققة، منشورة بطريقة لائقة،

وطباعة جيدة، وورق يناسب قيمتها (أعني ليس ورق اللحم!). وقد استعرض العالم الفاضل فؤاد سزكين في الجزء الرابع من موسوعته العظيمة مخطوطات أعمال جابر التي تم العثور عليها، وقام بنشر مخطوطة »كتاب السبعين« بالطبع التصويري. ويرى سزكين أن أسس علم الكيمياء الحديث موجودة جميعها في كتب جابر بن حيان.

أما عن تراثنا العربي الخاص بعلم الفلاحة، فإنه يتكون من ترجمات عربية عن اللغات الأجنبية، فضلا عن أعمال عربية خالصة. وابتغاء للاختصار، فإننا نذكر بعض هذه الإسهامات العربية الهامة التي لا تزال تنتظر الرجال الأشداء والعلماء المخلصين ليقوموا بتحقيقها، ويتولوا نشرها. وأهم هذه الأعمال:

١- كتاب الفلاحة لكسينوس باسوس (مترجم عن الفهلوية).
٢- كتاب الفلاحة لمهراريس أو ديمقراطيس (؟) (مترجم عن السريانية).
٣- كتاب الفلاحة لاناطوليوس أو بليناس (؟) (مترجم عن السريانية).
٤- كتاب الفلاحة الرومية لابن سعد قسطوس (؟) (تأليف عربي)
٥- كتاب الفلاحة لينيوس اناطوليوس (عن السريانية).

٦- إن الاعتناء بكتب التراث، والاهتمام بتحقيقها، والحرص على نشرها، والحث على دراستها، والدعوة إلى مناقشتها، سيساعدنا على تحقيق هدف آخر غير كل ما أسلفنا ذكره من مقاصد. ونعني بذلك الكشف عن الوجه القبيح للغرب، وافتضاح تحامله علينا، واثبات عدائه الدفين للإسلام، وتوضيح محاربته الدائمة لثقافتنا. وأول ما نبدأ به قولنا هو تبيين ما لاحظه العالم الفاضل فؤاد سزكين من الفارق الواضح بين طريقة نقل المسلمين للعلوم عن اليونان وغيرهم، وأسلوب نقل الغربيين العلوم عن العرب المسلمين. فالعرب بعد أن أرسل الله تعالى إليهم رسولا منهم، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، ويأمرهم بالعدل، ويحثهم على ترك الظلم والمنكر، قد بدؤوا في طلب العلوم عند الأمم الأخرى، وترجمتها إلى لغة القرآن، بدافع من موقف الإسلام من العلم ودعوته إلى طلبه. فلما شرعوا في ترجمة العلوم عن العجم، لم يكن لديهم أي شعور بالنقص أو الحقد أو الحسد أو التبعية تجاه الشعوب التي أخذوا عنها، بل إنهم كانوا يشعرون بالقوة والتفوق على هذه الشعوب، بعد أن انتصرت دولتهم، واتسعت حدود مملكتهم. وقد أدى بهم موقفهم هذا إلى مراعاة الأمانة في النقل، والتحلي بأخلاق رفيعة، وآداب قويمة عند ترجمة العلوم من اللغات الأجنبية إلى العربية. فلم نسمع عن مترجم مسلم أو ناقل عربي قام بترجمة كتاب إلى العربية، ثم انتحله لنفسه، أو بدل اسم مؤلفه الأجنبي باسم كاتب عربي.
ويزداد هذا الموقف الأخلاقي للعرب وضوحا إذا قابلناه بأسلوب أهل أوروبا في النقل عن العرب. فأوروبا عندما بدأت تفيق من سباتها، وتدرك مدى تخلفها وجهلها، وجدت أن الطريق الوحيد للنجاة من التخلف، والتخلص من الجهل، هو ترجمة العلوم، ونقلها إلى اللغة اللاتينية. وقد كانت العلوم في ذلك الوقت مكتوبة باللغة العربية، وتطورها عقول عربية، ويرعاها حكام دولة إسلامية قوية. وقد عزّ على الأوروبيين أن يروا العرب أقوياء، وصعب عليهم أن يشعروا بالضعف تجاه أساتذتهم من العرب، فازداد حقدهم القديم على العرب، وزاد إحساسهم بالعداء تجاه المسلمين. وتعود هذه الأحقاد الدفينة، والكراهية المتأصلة، إلى ما قبل عصر يوحنا الدمشقي في القرن الثامن الميلادي. فلما بدأ الأوروبيون في ترجمة العلوم من اللغة العربية، إذا بهم بدافع من هذا الحقد الأعمى، والعداء المتأصل، يترجمون أعمال أساتذتهم العرب، ثم ينتحلوها تارة إلى أنفسهم، وتارة أخرى ينسبونها إلى مؤلفين من الإغريق! وعندما بدأ الغربيون في العصر الحديث في كتابة تاريخ العلوم، إذا بالكثير منهم يتجاهل إسهامات العرب وأمجاد المسلمين، فيبدؤون بأعمال اليونان، وينتهون بانجازات الغربيين في العصر الحديث. وكأن هؤلاء الجهلة قد خيل لهم حقدهم أن إسهامات العرب يمكن شطبها من التاريخ الإنساني بهذه السهولة وتلك البساطة.
ويشكو الصديق العزيز فؤاد سزكين مر الشكوى وهو يتحدث عن هذه الظاهرة المريبة التي تبين إجحاف الغربيين، وانعدام الأمانة العلمية لديهم، فيقول ضمن ما يقول: »على الرغم من الحقيقة المعروفة لدى مؤرخي العلوم بأهمية البيئات المختلفة في تاريخ العلوم، فإنه لا يزال في كتب التاريخ العلمي العام تصور عنيف سيطر بضعة قرون، خلاصته: ان تطور العلوم، ولاسيما في بلاد حوض البحر الأبيض قد مر بمرحلتين أساسيتين هما: مرحلة الإغريق القدماء ومرحلة العالم الغربي التي تبتدئ بظاهرة تسمى عصر النهضة«. ويوضح فرانس روزنتال دوافع المسلمين لترجمة العلوم إلى لغتهم حيث يقول: »ليس يكفي الدافع النفعي العملي،أو النظري ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية، بل لابد من فهم موقف الدين الإسلامي ذاته من العلم ... وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب، بل للحياة الإنسانية في جميع جوانبها، وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر في السعي وراء العلوم، وفي فتح الأبواب للوصول إلى المعارف الإنسانية، ولولاه لانحصرت الترجمة في أشياء ضرورية للحياة العملية وحدها«. وقد انعكس العامل الديني والعنصر الأخلاقي على أسلوب المسلمين في ترجمة العلوم إلى لغتهم، فاتسمت ترجماتهم بالأمانة العلمية والصراحة، ولم يفكروا مطلقا في انتحال أعمال العجم لأنفسهم، أو وضع أسماء عربية محل الأجنبية. وعلى العكس من ذلك كان الأوروبيون »يشعرون بشعور المعاداة والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم، وانعكس ذلك على عملية الأخذ بصورة عقد نفسية، وطبيعي بعد هذا أن يفقدوا عنصري الوضوح والصراحة، وهما العنصران الأصليان في عملية أخذ المسلمين عن الاخرين«. ومن أمثلة عدم أمانة الأوروبيين في النقل عن أساتذتهم العرب:
١- إن روجيه بيكون (١٢١٠-١٢٩٠م) اقتبس جميع ما نسب إليه من نتائج علمية من الكتب العربية المترجمة إلى

اللاتينية.
٢- إن رايموندوس لولوس (ت ١٣١٥م) قد ألف عددا كبيرا من كتب الكيمياء، ثبت مؤخرا أنه انتحل معظمها من أصول عربية لنفسه.
٣- إن الكيميائي الفرنسي برتلو قد أنكر إنجازات أستاذه العربي جابر بن حيان في حقل الكيمياء، بل ذهب إلى القول بأنه من المستحيل أن يكون للعرب هذه المقدرة على تأليف مثل المؤلفات التي ألفها جابر بن حيان! أرأيتم حقدا وجهالة مثل حقد هذا الأحمق وجهالته.
٤- تداول الأوروبيون كتاب »كامل الصناعة الطبية« للمجوسي على أنه من مؤلفات اللص قسطنطين الأفريقي الذي انتحله لنفسه، واستمر هذا الوضع المخزي نحو مائتي سنة.
٥- إن قسم المعادن من كتاب »الشفاء« لابن سينا ظل يتداول بين الكيميائيين الأوروبيين على مدى قرون على انه كتاب لارسطوطاليس.
٦- إن كل ما ينسب إلى روبرتوس كروستسته في تاريخ الفلك عبارة عن نقل من كتب البتاني وثابت بن قرة.
٧- كذلك فإن روبرتوس قد ألف كتابا في المد والجزر، تبين مؤخرا أنه مجرد تلخيص لكتاب الكندي في ذلك الموضوع.
٨- إن نقد ليفي بن جرسون لبطليموس ما هو إلا تكرار لنقد جابر بن أفلح لبطليوس.
٩- وقد نسب إلى ليفي أنه مكتشف الآلة الرصدية التي اشتهرت في العالم اللاتيني باسم »عصا يعقوب«، وثبت حديثا أن ابن سينا هو مكتشف هذه الآلة.
١٠- ونسب أيضا إلى ليفي أنه مكتشف الكسر العشري، وقد ثبت أن الرياضي المسلم الاقليدسي، الذي عاش في القرن الرابع الهجري، هو صاحب هذا الاكتشاف.
١١- إن الأوروبيين قد نسبوا كتاب حنين بن اسحاق في العين إلى جالينوس.
١٢- ونسبوا كتاب اسحاق بن عمران في الماليخوليا إلى روفوس اليوناني.

إن هذه السرقات التي تعبر عن انعدام الأمانة العلمية، والجهل بأصول البحث العلمي سوف تتضح أكثر، وتظهر بجلاء عندما ننهض بتحقيق التراث، وننشط في نشره، ونعكف على درسه، وعندئذ سوف تكون النتائج مذهلة، وسوف ندرك ما يعنيه العلامة فؤاد سزكين بقوله: »كلما أمعن الإنسان في دراسة المصادر الأصلية الأوروبية، ازداد تصوره أن هذه النهضة المزعومة أشبه ما تكون بالولد الذي نسب إلى غير أبيه الحقيقي«.
ويشير العالم فؤاد سزكين إلى ظاهرة الإفادة المباشرة من الترجمات العربية من قبل الأوروبيين، دون ذكر أسماء العلماء العرب، ثم يقول: »إن نسيان العلماء العرب منذ القرن الرابع عشر يرجع إلى عاملين آخرين. أولهما: ظهور التيار المناهض للعربية، وقد نشأ هذا التيار في نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر بضراوة وشدة. إنها العقدة النفسية تجاه أسماء العلماء العرب، ورائد هذا التيار المناهض للعربية هو رايموندوس لولوس ... وقد وصل إلينا له أكثر من عشرين كتابا اتضح من بحثها أنها جميعا مؤلفات عربية. وقد استمر التيار المناهض للعربية إلى أواسط القرن السادس عشر، وعندئذ كان ذكر العلماء العرب في تاريخ العلوم قد أصبح نسيا منسيا. وثانيهما: الطموح والولع بالتفوق الحضاري، فكانت الاكتشافات المهمة للعلماء المسلمين تنسب إلى يومنا هذا إلى علماء أوروبيين من القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ...« اهـ.

٧- إن تحقيق تراثنا في جميع ميادين العلم سوف يساعدنا على تحديد أسباب تخلفنا، والعوامل التي أدت إلى توقفنا عن العطاء، فصرنا مستهلكين بعد إن كنا منتجين، وأصبحنا عالة على الآخرين بعد أن كنا مستقلين، وتحولنا إلى خيابى بعد أن كنا مبدعين، وأمسينا لا كرامة لنا ولا كبرياء بعد أن كنا أمة فتية تنتصر لدين الله وتقود الحضارة الإنسانية. ومرة أخرى نكرر ما أسلفنا ذكره أعلاه من أن دعوتنا إلى إحياء كتب التراث، ونشرها، ودراستها، لا تهدف إلى الوقوف عند حد الفخر الفارغ، والتغني بآثار الأسلاف، فليس هذا مذهب العقلاء، ولا نحن من قصر النظر بحيث نطالب بهذه السخافات. بل إن مقصدنا من دراسة التراث - فضلا عما ذكرناه من قبل - هو أن نحدد بدقة كافية، وأمانة خالصة عوامل التقدم، ومظاهر الازدهار في حضارتنا، وكيف انقلب بنا الحال، فتأخرنا، وتخلفنا، وتدهورت أحوالنا. يقول العلامة المصلح فؤاد سزكين عن أسباب ركود الحضارة الإسلامية: »... إن التعليل الصحيح لا يتيسر إلا بعد تصوير شامل صحيح لتاريخ العلوم العربية والإسلامية، لنستطيع أن نعرف بكل وضوح العناصر البناءة والمكونة لها التي ربما بدأت تضعف أو تزول في وقت معين، والعناصر الهدامة والمتخلفة التي ساهمت بمرور الزمن في بطء التطور في المجتمع الإسلامي والانتهاء به إلى الركود«.
إن هناك الكثير من المخطوطات العربية التي تنتظر منا أن نهب لتحقيقها، وننهض لنشرها، ونقوم بإذاعتها في الناس. ذلك أن نشر هذه المخطوطات سوف يكشف لنا عن الكثير مما لا يزال خافيا علينا حتى الآن من أمور تتعلق باسهامات العرب في شتى فروع العلم. وعلى الرغم من ذلك فقد حاول بعض علمائنا أن يصوروا تطور النهضة الأسلامية وركودها، بناء على ما هو متوفر لدينا حتى الآن من معلومات عن تاريخ الحضارة الإسلامية. فذهب زكي نجيب محمود على سبيل المثال إلى القول: »وذلك لأنني قد رأيت أهل القرن السابع (أي عرب القرن السابع الميلادي) وكأنهم يعالجون شئونهم بفطرة البديهة، وأهل القرن الثامن وقد أخذوا يضعون القواعد، وأهل القرنين التاسع والعاشر وقد صعدوا من

القواعد المتفرقة إلى المبادئ الشاملة التي تضم الأشتات في جذوع واحدة. ثم جاء الحادي عشر بنظرة المتصوف التي تنطوي إلى دخيلة الذات من باطن لترى فيها الحق رؤية مباشرة«. ويرى زكي نجيب محمود أن انتشار التصوف كان بداية عصور التدهور والركود في الإسلام، حيث إنه يهاجم المتصوفة هجوما عنيفا يذكرنا بهجوم إبراهيم النظام والجاحظ ضد أهل الجهل وأصحاب الحديث. يقول زكي نجيب محمود: »... الذي أقرره هو أن المتصوف رجل يحلم في يقظته، وسواء أوجد النشوة في أحلامه تلك أم لم يجدها، فهو على كلتا الحالتين ليس مؤهلا بأحلامه للدخول في دنيا العمل، إنه لا ينجز شيئا لا لنفسه ولا لغيره، إلا أن تزول عنه تلك الحالة التي ملأته بأوهام الحلم ...«. ونحن لا نريد أن نناقش رأي زكي نجيب محمود في أسباب ركود الحضارة الإسلامية هنا، فليس هذا قصدنا من هذه السطور القليلة، وإنما أردنا أن نستعرض بعض آراء علمائنا، واجتهاداتهم في الكشف عن أسباب انحطاط المسلمين وتدهور أحوالهم. بيد أن كشف جميع هذه الأسباب لن يتثنى لنا إلا بعد استخراج مخطوطات التراث العربي من ظلمات شتى مكتبات العالم، ونشرها نشرة علمية لائقة. ونذكر تشخيصا آخر للعالم فؤاد سزكين لوضع المسلمين منذ القرن التاسع الهجري، ليقارنه القارئ برأي زكي نجيب محمود، لعل هذا يكون حافزا على المزيد من البحث، دافعا إلى تعميق الدراسة، حاثا على مواصلة المسيرة. يقول سزكين: »يتكون لدى الباحث الانطباع أن أعلى مرتبة من العلوم كان العالم الإسلامي يسعى منذ القرن التاسع الهجري إلى الوصول إليها عبارة عن مجرد الإحاطة والاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من تراث الأسلاف، وقليلا ما يصادف الباحث عند المسلمين ابتداء من ذاك الوقت الشعور الواضح بضرورة تطوير هذا الميراث تطويرا جوهريا«.

٨- ونختم حديثنا عن أهمية تحقيق كتب التراث، ونشرها نشرا علميا، ولو كره الجاهلون، بقول حسن للمؤرخ العظيم توينبي عن دور التراث في تحقيق وحدة العرب، حيث يقول: »هناك دون شك عامل واضح يساعد على تحقيق الوحدة العربية، هو أن لدى العرب تراثا واحدا مشتركا في اللغة والأدب يرجع إلى ألف وخمسمائة سنة، وكذلك ثقافة مشتركة وتاريخ مشترك«.

بسم الله الرحمن الرحيم - ثابت عيد - زيورخ في ١٩٩١/٣/٣
نحن والعقل والعلماء

»إذا أراد الله بأمة خيـرا،
جعل العلم في ملوكها،
والملك في علمائها«
أنوشـروان

تحتاج الحكومات العربية إلى إجراء مراجعة شاملة لسياستها العقيمة تجاه أصحاب العقول، ونظرتها الخاطئة إلى حملة العلم العرب. فليس هناك من شك أن إهمال حقوق العلماء العرب وتجاهل مطالبهم ماهما إلا أحد مظاهر الانحطاط والتخلف اللذين نحيا فيهما اليوم. بيد أن ما يُثير الدهشة والعجب بحق هو عدم إدراك المسؤلين العرب لأهمية العلم وخطورة الدور الذي يلعبه العلماء في حياة الأمم. بل إن الأمور قد وصلت في بعض الأحيان إلى درجة عالية من بلادة الحس وبطء الفهم، حيث نجد الغرب، الذي يعرف قيمة العلم وقدر العلماء، يُسرع إلى تكريم أي عالم عربي يبرز في مجال تخصصه، وإلى محاولة إغرائه للعمل في المؤسسات الغربية، إذا كان ذلك ممكنا، هذا في الوقت الذي يتصرف فيه المسؤولون العرب دون أي وعي أو إدراك لخطورة مايحدث أمامهم من استنزاف للعقول العربية، وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد. ونظرا لهذا الوضع المتدهور في البلدان العربية فكثيرا ما يحدث أن يهاجر العلماء العرب إلى الغرب فيجدون التقدير والاحترام والرفعة لديه، بعد ان كانت الأنظمة العربية تبخسهم حقوقهم، وتجهل قدرهم، وتُسـئ معاملتـهم. وينتـج عن هذا الحال أن يُفضّل العلماء العرب البقاء في الغرب على العودة إلى الوطن، فيكسب الغرب عقولا جديدة تساهم في تطوير حضارته وتجديد مدنيته، ونخسر نحن عقولا كان من الممكن أن تكون عونا لنا في كفاحنا ضد الجهل والفقر والمرض لو كنـا أحسـنا معاملتـها، واعتـرفنا بفضـلها،ورفعنا من شأنها. والأمثلة على عدم تقديرنا للعلم وإدراكنا لقيمة العلماء كثيرة متعددة لا يتسع المجال هنا إلى عرضها جميعا، ولكننا نذكر على سـبيل المثـال وليس الحصـر حالتي العالمين المصـريين مجـدي يعـقـوب ومحـمـد منصور. فالأول غني عن التعريف حيث أنه يعتبر من أشهر جراحي القلب في العالم، ويعمل الآن في المملكة المتحدة حيث يحيطونه برعايتهم ويفخرون بوجوده في بلادهم. والثاني يعمل كأستاذ كرسي في الهندسة الألكترونية (التحكم الآلي) في جامعة زيورخ ويعتبر من أكفأ العلماء في ميدان تخصصه. فكيف عامل أهل الجهل في مصر هذين العالمين الفاضلين؟ لقد اضطهدوا الأول قبل أن يرحل إلى انجلترا وشككوا في رجاحة عقله، وحاولوا تحطيم معنوياته وتدمير آماله. أما الثاني فبعد أن وصل إلى ما وصل إليه في سويسرا من مكانة علمية مرموقة ووضع اجتماعي متميز، فكر في العودة إلى مصر ليخدم أبناءها ويشارك في تطوير العلوم فيها، فإذا بأهل الجهل في مصر يقفون له بالمرصاد، ويتفننون في وضع العراقيل أمامه، ويختلقون وسائل التطفيش لإبعاده عن مصر، وبتر أي صلات بينه وبين الوطن الأم. وليس هذا إلا أحد مظاهر اللاعقل في حياتنا الحاضرة.

تحيا الأمم أو تموت بمقدار ما وهبها الله من أصحاب العقول الراجحة والقرائح المبدعة. فتحيط الأمم الراقية علماءها برعايتها، وترفع من مكانتهم، وتعترف بفضلهم، وتجعل الملك والرئاسة فيهم. وقد صاغ أنوشروان هذا المبدأ في حكمة خالدة ارتبطت باسمه منذ مئات السنين حيث قال: »إذا أراد الله بأمة خيرا، جعل العلم في ملوكها، والملك في علمائها«. أما المجتمعات المتخلفة، فهي تتنكر للعلماء من أبنائها، وتجهل قدرهم، وتغلظ لهم القول، وتكشف لهم عن أنيابها، وتتجاهل حقوقهم. وقد دعا هذا الموقف المتنكر لحملة العلم بعض الشعراء إلى الشكوى والاحتجاج - حيث يقول:

جلوسي في سـوق أبيـع وأشتري — دليل على أن الأنـام قـرود
ولا خير في قوم يـذل كرامهـم — ويعظم فيهم نذلهم ويسود

والعقل هو أشرف مخلوقات الله تعالى على الإطلاق، وأول رسله إلى عباده، أو كما يقول السجستاني: » ... إن أول رسول من الصانع إلى المصنوعين إنما هو العقل«. ذلك أن الإنسان يصل إلى معرفة البارئ بعقله، وبه يميز بين القبح والحسن، ويدرك معاني القرآن ومقاصد الشريعة. وهو »أول رسول« إلى الإنسانية لأنه أقدم من أنبياء الله ورسله، ولأن بدونه لا يستطيع الإنسان أن يفهم ما أتى به أنبياء الله ورسله من شـرائع سماوية وقوانين آلهيـة. وقد عبّر أبو العلاء المعري عن هذا المعنى في أحد أبياته حيث يقول:

أيها الغر قد خصصت بعقل — فاسألنه فكل عـقـل نبـي

ثم إن الجاحظ قد ذهب مذهبا مشابها لهذا حيث ذكر في رسائله أن العقل هو وكيل الله عند الإنسان. وليس مستغربا أن نجد مثل هذه الأقوال الحسنة والأوصاف الدقيقة للعقل عند المسلمين، وخاصة إذا عرفنا أن أصحاب هذه الأقوال قد عاشوا في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، وكانوا من أعلام مجتمعاتهم وأصحاب المذهب العقلاني فيها. يقول العالم الجليل أبو الحسن الماوردي:

»إعلم أن لكل فضيلة أسا، ولكل أدب ينبوعا. وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا، فأوجب الدين بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ...«

ولكي نبين مدى خطورة الدور الذي يلعبه حملة العلم، وقيمة ما ينجزه أهل العلم من أعمال، ولكي نوضح معنى قولنا ان العقل الإنساني هو أعظم مخلوقات الله تعالى وأول رسله إلى عباده، فعلينا أن نتساءل: هل يمكننا أن نذكر تاريخ الإسلام المجيد دون أن نذكر أسماء عمر بن الخطاب وأبي الحسن البصـري وواصل بن عطاء والجاحظ؟ وهل يمكن لمؤرخ الطب أن يتعرض لتاريخ الطب دون أن يتناول اسهامات بقراط وجالينوس والرازي وابن النفيس وجابر بن حيان وعلي بن العباس المجوسي؟ وهل يمكن لمؤرخ الزراعة عند العرب أن يكتب في موضوع بحثه دون أن يذكر تأثير كتاب »الفلاحة النبطية« ترجمة العالم الجليل ابن وحشية على كل من كتب في الزراعة من بعده من الكتاب العرب مثل الطغنري وابن العوام وابن ليون وأبي الخير الاشبلي؟ وهل يستطيع مؤرخ العقيدة الإسلامية أن يتجاهل النجوم الساطعة واللآلئ الناصعة من الأعلام الكبار والفلاسفة العظام الذين اثروا المكتبة العربية بأعمالهم العظيمة وأبحاثهم الوفيرة، وأبلوا بلاء حسنا في دفاعهم عن العقيدة الإسلامية ضد مطاعن الكفرة وهجمات الملاحدة، هؤلاء العلماء من أمثال واصل بن عطاء وأبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام وعبد الجبار العظيم والزمخشري ونشوان أبي سعيد الحميري؟ لقد كانوا رجالا ونعم الرجال، تركوا لنا تراثا هائلا خلد أسماءهم ودل على شرف معدنهم وقوة إرادتهم وصلابة عزيمتهم. ويحق لهم أن يقولوا بافتخار:

تـلك آثـارنـا تـدل علينـا — فانظروا بعدنا في الآثار

وهل يستطيع مؤرخ علم التاريخ عند العرب أن يؤلف في هذا الموضوع دون أن يذكر ابن هشام والطبري والسمعاني وابن خلكان والمسعودي وابن أبي أصيبعة وابن النديم والقفطي؟ وهل يمكننا أن نتحدث عن تاريخ النحو العربي دون أن نذكر سيبويه والخليل وابن دريد والمبرد وابن جني والسيرافي والرماني؟ ولا نريد أن نسهب في ذكر مشاهير علماء الإسلام وما أكثرهم، فليس هذا قصدنا، ولكننا أردنا أن نبين حقيقة بسيطة وجلية وهي أن العلماء هم حملة العلم وثروة الأمة وفخرها، وأنه لا نهضة بلا علم، ولا علم بلا علماء، ولا علماء بلا عناية بهم ورعاية لهم، ولا رعاية للعلماء ولا عناية بهم بلا وعي وإدراك بأنهم الأساس الذي تبني عليه الأمم حضارتها، والأصل الذي تشيد عليه مدنيتها، واللآلئ التي تفاخر بها الأمم الأخرى.

وإذا كان العقل هو أعظم نعم الله على خلقه، وأول رسله إليهم، فطبيعي أن يكون الجهل والغباء من أسوأ ما يمكن للمرء أن يتصف به من صفات، بل ومن أشد مايمكن أن يعاقب الله به عباده. قال رسول الله (ص): »الأحمق أبغض خلق الله إليه، إذ حرمه أعز الأشياء عليه (العقل)«. وقال الفيلسوف الفرنسي فولتير: » الظلم الواقع على الأمة عقاب لها على جهلها«. وهذا قول حسن وحكمة بليغة. ولا نحتاج إلا أن نفكر في الظلم الواقع علينا من قِبَل الغرب، ونتذكر تاريخ استعمار الغرب لبلادنا، ونهبه لثرواتنا، ومحاربته لثقافتنا، وطعنه في ديانتنا، واستعباده لشعوبنا، ومنعه لإخواننا في المغرب العربي من تعلم لغة القرآن الكريم، وفرضه عليهم تعلم الفرنسية والإيطالية، ونفيه للوطنيين وزعماء حركات التحرير من قومنا. ولم تكن الدول الغربية لتنجح في مهمتها هذه لإذلال شعوبنا لولا الجهل الذي تفشى بيننا، وعقاب الجهل، كما يقول فولتير، هو ما وقع علينا من نير الاحتلال ونهب الاستعمار واسترقاق الغرب لنا. وقال الأديب الفرنسي ديديرو: »إن علة العلل في ارتقاء الأمم وانحطاطها هو العلم أو الجهل، وما عدا ذلك فأسباب جزئية ترجع إلى تلك العلة الأصلية«. ونحن نؤمن ايمانا راسخا أن العدو الأول للمسلمين والعرب اليوم هو الجهل. فأهل الجهل عاجزون عن إدراك ما يمكن أن تحققه لهم وحدة العرب والمسلمين من قوة غائبة وحق مسلوب وريادة ضائعة وأمجاد غابرة. وإذا حلّ العلم مكان الجهل، وجاء الذكاء وذهب الغباء، وانتشر الوعي وزهق اللاوعي، فلن يستطيع كائن ما كان أن يقف في طريق وحدة العرب وجمع شملهم وتوحيد صفوفهم. ومهما تكن قيمة العقل وفضله، ومهما كان الدور الذي يلعبه في حياة الإنسان عظيما جبارا، فإنه يظلّ بحاجة إلى شريعة سماوية تكمل عمله، وتحدد وظيفته، وتبعده عن الإثم والضلال. وقد أوضح عقلانيو الإسلام العلاقة بين العقل والرسل السماوية، فذهبوا إلى القول بأن الرسل يتممون عمل العقل ويكملون وظيفته. يقول العالم الفاضل أبو القاسم الزمخشري:

»الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع«.

وقد شبه داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشيرازي حال العقل قبل إرسال الرسل بالنار الكامنة في الزناد حيث يقول:

»... إن العقل كامن في الصورة البشرية كمون النار في الزناد. فلو بقي ما بقي في مضماره عادما لمن يستخرجه ويستدرجه، لم يقع الانتفاع به، كالنار الكامنة في الحجر والحديد لا يستنفع بها ولا يحظى بطائل من خيرها ماعدمت القادح. والذي يقع من العقل المكمن في الصورة الآدمية موقع قادح الزناد هم الأنبياء صلى الله عليهم ... فهم أولى بأن يسموا عقلا لاستخلاصهم العقول من الصورة البشرية وإخراجهم إياها من حد القوة إلى الفعل«.

ويوضح الشيرازي بعد ذلك أن العقول هي نعم الله على خلقه، وأن بها يصل العبد إلى معرفة ربه. كذلك فقد أوضح قاضي القضاة عبد الجبار نفس هذا المعنى مؤكدا قيمة العقل السامية في حياة الإنسان حيث يقول:

»...(إن) ما تأتي به الرسل ... لا يكون إلا تفصيل ماتقرر جملته في العقل ... (ذلك) أن وجوب المصلحة وقُبح المفسدة متقرران في العقل. إلا أنا لما لم يمكنا أن نعلم عقلا أن هذا الفعل مصلحة وذلك مفسدة، بعث الله تعالى إلينا الرسل ليعرفونا ذلك من حال هذه الأفعال، فيكونوا قد جاؤوا بتقرير ما قد ركبه الله تعالى في عقولنا وتفصيل ماقد تقرر فيها«.

ويهمنا في هذا السياق أن نشير إلى ملاحظة هامة أبداها الشاعر الفيلسوف محمد إقبال حول كون رسول الإسلام »خاتم الأنبياء«. فقد ذهب إقبال إلى القول بإن الرسول (ص) كان لابد أن يكون خاتم الأنبياء، وأن تكون رسالته آخر الرسالات، لأنه قد جاء بالقرآن الذي يدعو إلى تحكيم العقل فيما يعرض للناس من مشاكل. ومادام الإنسان قد اهتدى بعقله، واتبع أحكامه، فهو ليس بحاجة إلى هداية بعد ذلك سوى اتباع ما يمليه عليه عقله من الأحكام.
إننا لم نسق كل هذه الأقوال الحسنة والآراء الثاقبة عن قيمة العقل الإنساني ومكانته السامية إلا لنوضح أن المسلمين عندما قاموا بدورهم في حمل راية العلم، وتطوير العلوم الإنسانية، لم يكن ليتم لهم ذلك دون وعي سابق واقتناع ثابت بالدور العظيم الذي يلعبه العقل في حياة الأمم. لقد شيد المسلمون حضارتهم على العلم والدين، ولم يروا أي تعارض بينهما أو نفور، بل كانوا على اقتناع تام بأن للعلم ميدانه وللدين مجاله، وأن هذا يكمل ذاك ويتممه. وبهذا المنطق سادت دولتهم، وانتشرت ثقافتهم، وعلت كلمتهم. فلما أهملوا العلم بادت دولتهم، وتدهورت أحوالهم، ودنست ديارهم. ونحن نتفق مع العالم الفاضل أحمد أمين حين يقول:

»إن الدين يبدأ حيث ينتهي العلم. فالإسلام يؤمن بالعلم ويترك له حريته في دائرته، ويدعو إلى الدين والإيمان بعقائده في دائرته أيضا. والاكتفاء بأحدهما تقصير ضار. وكان المسلمون الأولون يؤمنون بهما معا، ثم كفروا بالعلم فضلوا. والغربيون يؤمنون بالعلم فنجحوا في حياتهم الدنيا وكفروا بالدين فضلوا. ولا منجى من الضلال إلا بالإيمان بهما معا. ففي الإيمان بالعلم حياة العقل. وفي الإيمان بالدين حياة القلب. ولا خير للإنسانية إلا بحياة العقل والقلب معا... ولا أمل في

النـجاح إلا بالرجـوع إلى تعاليـم الإســلام وسير المسلمين الأولين باستخدام العقل والقلب. وآية ذلك أن الغربيين في اعتمادهم الكلي على العقل وحده لم يسعدوا كما كان ينتظر. وكانت نهاية العلم ويلات الحرب والفزع والرعب والأسلحة النارية والقنبلة الذرية. وليس العلم هو الذي سبب الفزع والرعب، ولكن الذي سببهما هو أن العلم لم يدعم بالدين. والعقل لم يدعم بالقلب«.

بل إن كل هذا الكلام، وجميع تلك الآراء قد أوردتها كتب التاريخ على لسان رسول الإسلام، وتناقلها حملة الأخبار عن صحابة رسول الله. فقد أورد ابن قتيبة الحديث النبوي الشريف: »أن جبريل عليه السلام أتى آدم عليه السلام فقال له: إني أتيتك بثلاث، فاختر واحدة. قال: وما هي يا جبريل؟ قال: العقل والحياء والدين. قال: قد اخترت العقل. فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال: ارجعا فقد اختار العقل عليكما. فقالا: أمِرنا أن نكون مع العقل حيث كان« اهـ. فهذا حديث شـريف يبيـن العلاقة الوثيقة بين العقل والدين، ويربط بينهما بطريقة لا تدع مجالا للشك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولا يفوتنا في هذا السياق أن نشير إلى موقفنا من التقليد، فنقول: إن مذهبنا ورأينا في هذه القضية هو نفس مذهب العقلانيين في الإسلام. وهذا المذهب يرفض التقليد ويستقبحه لأن المقلدين هم المستضعفون، ولأن التقليد يعني إلغاء عمل العقل وقبول كل ما يصدر عمن نقلده، قبيحا كان أم حسنا، ظلما كان أم عدلا، شركا كان أو توحيدا. وهذا شئ يليق بأهل الجهل وضعاف العقول وقليلي الحيلة، أما أهل العقل من المسلمين فالعقل إمامهم، والدين وازعهم، والعدل مذهبهم، والتوحيد عقيدتهم. وهم يستقبحون التقليد لأنهم يأبون التبعية، ويرفضون الاستضعاف، ويستنكرون إلغاء أعمال العقل. وهم يتـركون للعقل تـقريــر أحكام الأمــور، فيرفضـون ما يسـتقبحه العقل، ويـقبلون ما يستحسنه. وهم يستقبحون ما ذهب إليه طه حسين وشيعته من مطالبة المصريين بتقليد كل ما يفعله الأوروبيون، حتى يصلوا إلى ما وصل إليه الأوروبيون. لأن هذا رأي معناه أن نلغي عقولنا، ونقلد أهل الغرب في علمهم وجهلهم، في استعمارهم للشعوب واستغلالهم لها ونهبهم لثرواتها، وفي محاربتهم للإسلام وتبشيرهم بالمسيحية، وفي تحليلهم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، إلى آخر هذه المبادئ المناقضة لديننا والمخالفة لحضارتنا والمناوئة لطبيعتنا. ألم يرَ المنادون بالتقليد أن التقليد مذموم في الدين، غير مقبول في حجة العقل. يقول أمير أمراء البيان العرب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

»... وأصحاب الحديث والعوام هم الذين يقلدون ولا يحصلون، ولا يتخيرون، والتقليد مرغوب عنه في حجة العقل، منهي عنه في القرآن«.

ونهج قاضي القضاة عبد الجبار نفس هذا المنهج في ذم التقليد واستقباح أهله، وعبد الجبار هو مَن وصفه الصاحب بن عباد بقوله: »إنه أفضل أهل الأرض وأعلمهم«. يقول قاضي القضاة:

»ومما يعتمد عليه في فساد التقليد ... أن المقلد لا يأمن خطأ من قلده فيما يقدم عليه من الاعتقاد وأن يكون جهلا قبيحا، والإقدام على ما لا يؤمن كونه جهلا قبيحا بمنزلة الإقدام علىه مع القطع على ذلك«.

وليس مستغربا أن يهاجم محمد عبده التقليد ويذم المقلدين، بنفس الحدة التي هاجمه بها أهل الجهل وأنصار الجمود، فهو من العقلانيين المحدثين في الإسلام الذين عرفوا قيمة العقل، وأدركوا عظم الدور الذي يلعبه في حياة الأمم. يقول محمد عبده:

»... فإن التقليدكما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار، فهو مضـلة يعذر فيها الحيـوان، ولا تجمل بحال الإنسان«.

إننا نؤمن بأن العقل كفيل بأن يجنبنا الوقوع في نفس الأخطاء التي وقع الغربيون فيها، ونؤمن بقدرة الإسلام على إنقاذ الغربيين والشرقيين معا من مادية الغرب وضلاله، ومن تخلف الشرق الإسلامي وانحطاطه.

أما حاجتنا إلى ترجمة العلوم من اللغات الأوروبية إلى لغتنا العربية، فليس هذا داخلا في باب التقليد، بل هو مما يحدث بين الحضارات الإنسانية من تأثير وتأثر، وأخذ وعطاء. وقد سبق أن أخذ اليونان عن المصريين، ثم أخذ العرب عن اليونان، ثم أخذ الأوروبيون عن العرب، والآن ها هي عجلة الزمان تدور ويأتي العصر الذي يجد العرب فيه أنفسهم مرغمين على نقل العلوم من اللغات الأوروبية إلى لغتهم الوطنية.

بسم الله الرحمن الرحيم - ثابت عيد - زيورخ في ١٩٩١/١١/٣

ترجمة العلوم

»لو استطعت لكتبت بحروف من نـــور من
أعالي جبال الهيملايا وجوب نقل العلوم
الغربيــة إلى اللغة الوطنيــة«
السيد أحمد خان

١- ليس هناك من شك في أننا بحاجة إلى مراجعة موقفنا من ترجمة العلوم إلى اللغة العربية، ووضع خطة طموحة نستطيع أن نصل من خلالها إلى وضع حجر الأساس لنهضة عربية حديثة، يكون العلم أساسها، والدين دعامتها، والنظام قانونها. ونظرا لأن العلم اليوم موجود في الغرب، ومكتوب باللغات الأوروبية، فينبغي أن نبدأ فورا في نقله وترجمته إلى اللغة العربية. لقد غرقت العرب في سبات عميقة بعد عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ونهض الغربيون من عصور الظلام والتخلف التي كانوا يحيون فيها، ونقلوا العلوم من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية. بيد أنهم لم يكتفوا بترجمة هذه العلوم ونقلها إلى لغاتهم، بل استوعبوها وطوروها واتخذوها أساسا لبناء حضارتهم الحديثة. ونحن نؤمن ايمانا راسخا بأن العرب لن يتمكنوا من اللحاق بموكب الحضارة الحديثة إذا لم يبدؤوا فورا في ترجمة العلوم ونقلها إلى لغتهم القومية لتكون نقطة الانطلاق نحو حضارة حديثة يسترجعون فيها تاريخهم المجيد وماضيهم العظيم. يقول إبراهيم مدكور: »الترجمة وسيلة هامة من وسائل التبادل الثقافي، عولت عليها الثقافات قديما وحديثا. فأخذ اليونان عن قدماء المصريين والهنود، والعرب عن اليونان، والمسيحيون عن المسلمين«. وأكد الشيخ مصطفى عبد الرازق على الدور الخطير الذي تلعبه الترجمة في نهضة الأمم وبعث طاقات شــعوبها حيث يقول: »لقد كانت التـرجمـة وماتـزال دعامة من دعائم النهضــات
الفكرية والثقافية للشعوب، وبالترجمة بدأت النهضة الثقافية في عصور الإسلام الأولى ... وعندما نهضت أوروبا من سباتها، ونفضت الكرى عن عيونها، رأت أن أقوم وسيلة لانتعاشها أن تنحو نحو الترجمة ... وحين أسفر فجر ... النهضة المصرية وأدرك رأس العائلة المالكة في مصر ما للترجمة من أثر فعال في إنعاش البلاد وإحيائها، هداه نظره الثاقب إلى إرسال البعوث العلمية إلى إوروبا، لنقل معارف الأوروبيين وثقافتهم إلى مصر باللغة العربية، فأرسل ثلاث بعثات علمية في أزمنة مختلفة، فنقلوا إلى العربية مئات من الكتب في العلوم والمعارف المختلفة. ولقد كان لذلك بلا ريب أثره الملموس في اللغة العربية والثقافة العربية«.

٢- لا يعرف كثير من الناس أن عددا لا بأس به من الترجمات العربية القديمة عن اللغات الأجنبية لا يزال في صورة مخطوطات لم يتم تحقيقها بعد، كما أن بعض هذه الترجمات قام بنشره أساتذة غربيون في القرن الماضي وأوائل هذا القرن دون أن تعاد طباعة هذه الترجمات مرة أخرى، فصارت مجهولة للقارئ العربي كمثيلتها من الترجمات التي لم تحقق حتى الآن. ويهدف المعهد إلى حصر جميع الترجمات العربية القديمة التي تم تحقيقها ونشرها ونفذت طبعاتها، والتي لم تحقق بعد. ثم يتولى إعادة طبع ما سبق تحقيقه، وتحقيق ما لايزال مخطوطا في مختلف مكتبات العالم. ونذكر هنا على سبيل المثال وليس الحصر بعض كتب جالينوس التي قام حنين بن اسحاق بترجمة معظمها إلى العربية:
١- كتاب الفرق.
٢- كتاب الصناعة.
٣- كتاب المقالات الخمس في التشريح.
٤- كتاب المزاج.
٥- كتاب النبض الكبير
٦- كتاب تدبير الأصحاء.
٧- كتاب علل النفس.
٨- كتاب الصوت.
٩- كتاب منافع الأعضاء.
١٠- كتاب الحث على تعلم الطب.

ونود أن نشير في هذا السياق إلى ملاحظة هامة، وهي أن دعوتنا إلى العودة إلى الجذور، وإلحاحنا على البدء بتراث الأجداد لبناء نهضتنا الحديثة، تصدر عن اقتناع تام بأن عملنا هذا لا يهدف إلى مجرد تبيين آثار السالفين وتوضيح الدور الذى لعبته العرب في حفظ علوم اليونان وتطويرها، لكي نتوقف عند حد الافتخار الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، بل أن هدفنا من ذلك هو دراسة تاريخ تطور العلوم، وبحث تطور الأفكار الإنسانية بطريقة علمية صحيحة نعرف من خلالها من نحن، ومن كان أجدادنا، وماذا أنجزوا، ولماذا توقفوا عن الإنجاز، وكيف حدث التخلف عن موكب الحضارة، وكيف بدأ الأوروبيون في بناء حضارتهم. فكل هذه المسائل لابد من بحثها واستيعابها، لأنها ستكون عونا لنا فيما سيتبعها من خطوات، وما يتتمها من أعمال، تحدد مستقبلنا، وتنير لنا طريقنا إلى الاستقلال.

٣- يبدو أن العلوم نادرا ما تزدهر دون أن تجد من الحكام من يرعاها، ويرفع من قدر العلماء، ويعطيهم الكلمة العليا في تسيير شئون البلاد. وتنطبق هذه المقولة إلى حد بعيد على العالم الإسلامي. فحركة الترجمة عاشت عصرها الذهبي في ظل الخليفة العباسي المأمون الذي أسس »بيت الحكمة« سنة ٨٣٠م، »وجعل منه مؤسسة رسمية ومكتبة للترجمة والبحث«. وشجع حركة الترجمة ماديا وأدبيا، فظهر جيل من عظماء المترجمين العرب خلدتهم أعمالهم، وفاقت شهرتهم الآفاق. فنحن مازلنا نذكر هؤلاء المترجمين العرب بكل فخر وإعجاب، ونرجو أن تتخذهم الأجيال الشابة من العرب كمثل أعلى وقدوة حسنة، يحذون حذوهم ويسلكون مسلكهم، ويحولون إعجابهم بهم إلى إنجازات جديدة وإسهامات مفيدة. نريد من الشباب العربي أن يعرف كبار المترجمين العرب من أمثال حنين بن اسحاق وقسطا بن لوقا وابن المقفع وابن وحشية ومتي بن يونس ويحي بن عدي وثابت بن قرة وغيرهم من كبار المترجمين ومشاهير الناقلين.

٤- وتكرر ماحدث في عصر المأمون من ازدهار العلوم وتنشيط حركة الترجمة مرة أخرى عندما تولى محمد علي مقاليد الحكم في مصر سنة ١٨٠٥م، حيث كان على وعي تام بأهمية العلم وخطورة الدور الذي يقوم به العلماء في تأسيس نهضـــة حديثة وإقامة دولة فتية قوية. ويكفينا في هذا السياق أن نذكر تشجيعه للعلامة المصري رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) وإحاطته إياه بالرعاية والتكريم. ودور الطهطاوي في مجال الترجمة من الفرنسية إلى العربية في القرن الماضي معروف جلي. وتذكر كتب التاريخ أن الطهطاوي عندما عرض على محمد علي فكرة إنشاء مدرسة للترجمة، لم يتردد الأخير في تلبية طلبه. ولم يكن هذا تصرفا غريبا أو شاذا من محمد علي الذي أسس الدولة الحديثة في مصر، وأوفد البعثات إلى الخارج، وأحاط العلماء برعايته. وتم تأسيس المدرسة في سنة ١٨٣٥م، حيث سميت أولا »مدرسة الترجمة«، ثم صار اسمها »مدرسة الألسن« فيما بعد. وقال الطهطاوي في الخطبة التي ألقاها بمناسبة تخريج الدفعة الأولى من هذه المدرسة سنة ١٨٣٩م: »إن أصل تصدينا لإنشاء هذه المدرسة: حب إيصال النفع إلى الوطن، الذي حبه من الإيمان«.

٥- تقلصت حركة الترجمة بعد عهد الطهطاوي، وضن الزمان على أمة العرب بالخليفة العالِم والحاكم النابه الذي يدرك قيمة العلم ويرفع من قدر حملته. وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت حركة الترجمة في صورة جهود متفرقة في أنحاء العالم العربي، مع غياب التخطيط الشامل والنظرة المستقبلية والمشروع القومي. ونذكر في هذا السياق بكل احترام وتقدير جهود العالم الجليل أحمد أمين الذي أنشأ »لجنة التأليف والترجمة والنشر« سنة ١٩١٤م، حيث انتخب رئيسا لهذه اللجنة التي أثرت الحياة الثقافية في مصر والعالم العربي من خلال ما نشرته من المؤلفات الجيدة والترجمات المفيدة.

٦- عند التحدي يظهر الرجال وتجلو معادنهم، فيقبل العظماء التحدي بعزيمة قوية وإرادة فولاذية، ويتهاوى الضعفاء أمام التحدي ويتساقطون. فيسجل التاريخ للعظماء مواقفهم ويخلد أسماءهم بحروف من ذهب، بينما يندثر الضعفاء كما تندثر فقاقيع الماء، وصدق من قال إن الإنسان موقف. وإذا كان المأمون قد أنشأ »بيت الحكمة«، وأسس الطهطاوي - تحت رعاية محمد علي - »مدرســـة التـــرجمة«، وأقام أحمد أمين »لجنة التأليف والترجمة والنشر«، فلا يسع المرء إلا الاعتراف بفضل هؤلاء العظماء الذين قبلوا التحدي وكانوا على مستوى المسئولية، فأدوا رسالتهم على أتم ما يكون، ولعبوا دورا بارزا في خدمة الثقافة العربية.
بيد أننا اليوم في حاجة إلى ألف بيت حكمة، وألف مدرسة ترجمة، وألف لجنة للتأليف والترجمة والنشر، وألف مأمون، وألف طهطاوي، وألف أحمد أمين. وليس هذا كلاما صادرا بدافع من المبالغة والتهويل، بل إنه صادر عن وعي كامل بمدى الانحطاط الذي نحيا فيه اليوم، وإدراك شامل لدور العلوم في حل مشاكل العرب وتحقيق حلم الاستقلال عن أهل الغرب الذين لا يريدون لنا إلا التبعية، ولا يرضون عنا إلا إذا جعلنا من بلادنا مصادر المواد الخام لمصانعهم، وأسواقا مفتوحة أمام منتجاتهم.

٧- يذهب بعض أهل الجهل من قومنا إلى القول بأهمية ترجمة الأدب العربي إلى مختلف لغات العالم حتى يعرف العالم ثقافتنا ويعلم أننا أصحاب حضارة عظيمة وتاريخ عريق. بل ذهب البعض منهم إلى المطالبة بإنشاء مؤسسة عربية تكون مهمتها ترجمة الأدب العربي إلى اللغات الأجنبية. ونحن نبين موقفنا من هذه القضية حتى نثبت فساد هذا الرأى وجهل أصحابه. وأول ما نبدأ به في هذا السياق هو السؤال التالي: من هو المتفوق والمتقدم علميا، ومن هو المتأخر والمتخلف علميا؟ أنحن العرب، أم أهل الغرب واليابان؟ الإجابة على هذا السؤال هي أن الغرب واليابان هما المتفوقان على العرب علميا بلا شك. ونعود ونسأل مرة أخرى: من الذي يعاني أكثر من الأمية وانتشار الجهل وقلة المتعلمين؟ الإجابة على هذا السؤال هي أن العرب يعانون أكثر من الغرب واليابان من مشاكل الأمية وانتشار الجهل وقلة المتعلمين. ونعاود السؤال مرة أخرى فنقول: من يستطيع أن يقوم بترجمة الكتب العلمية والأدبية: الأمي أم الجاهل أم غير المتأهل أم المتعلم المتأهل المتخصص؟ لا يشك أحد أن الترجمة عمل خطير لا يستطيع أن يقوم به إلا المتعلم المتأهل المتخصص. فإذا كان ذلك كذلك فإننا نخطو خطوة أخرى إلى الأمام ونقول: إذا كنا متخلفين علميا عن الغرب واليابان، وإذا كنا مازلنا نعاني من انتشار الأمية وتفشي الجهل بين شعوبنا، وإذا كانت نسبة المتعلمين من الشعوب العربية لا تزال أقل بكثير من نسبتهم في

الغرب واليابان، أفلا يعني هذا:

(١) اننا كعرب أحوج من الغرب واليابان إلى العلم والثقافة ومكافحة الجهل والأمية، واننا في أشد الحاجة إلى نقل العلوم والآداب من اللغات الأوروبية إلى لغتنا حتى لانظل متخلفين علميا عن أهل الغرب واليابان. (٢) ان جهود المتعلمين العرب ينبغي أن تُصرف إلى مكافحة الجهل والأمية بين الشعوب العربية وليس إلى ترجمة أدبنا العربي إلى لغات العالم حتى يزداد الآخرون علما ونزداد نحن جهلا وأمية وضلالا. (٣) إذا كان لدينا اليوم عدد محدود من المتعلمين العرب ممن يجيدون اللغة العربية ولغة أجنبية أو أكثر، ويمكنهم أن يقوموا بترجمة شئ من العلوم أو الآداب من اللغات الأوروبية إلى العربية، فلماذا نكلفهم بترجمة أدبنا إلى اللغات الأوروبية ونخسر جهودهم التى نحن في أشد الحاجة إليها للترجمة إلى العربية وإثراء المكتبة العربية وليس الغربية، وتنوير شعوبنا وليس الشعوب الأخرى، والصب في وعائنا وليس الحلب في إناء الآخرين. (٤) إن ترجمة الأدب العربي إلى اللغات الأوروبية لن يفيدنا في شئ سوى أن تزداد معرفة الغرب بتاريخنا ومجتمعاتنا وثقافتنا وعاداتنا. وليس هذا شأننا ولا هو داخل في نطاق رسالتنا في الوقت الحاضر. فإذا كان الغرب يريد أن يعرف عنا شيئا، فليعلم من لا علم عنده أن الغرب لديه وسائله، ولديه علماؤه، ويملك الإمكانيات الكافية التي يصل بها إلى أهدافه ويحقق أغراضه، وليس الغرب بحاجة إلى جهود المترجمين العرب ليساعدوه في ذلك وهم عاجزون عن مساعدة أنفسهم!

إن المثل العربي القديم يقول: »مَن تكلف ما لا يعنيه، فاته ما يعنيه«، ونحن نكرر ما ذكرناه سابقا أن ما يعنينا في المقام الأول هو ترجمة العلوم والآداب من اللغات الأوروبية إلى لغتنا العربية. أما ترجمة الأدب العربي إلى اللغات الأجنبية، فهذا أمر لا شأن لنا به. فإذا أراد الغرب أن يترجم الأدب العربي إلى لغاته، فليفعل، أما نحن فينبغي أن تنصرف جهودنا إلى ترجمة العلوم والآداب من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية.

٨- إن دعوتنا إلى أهمية تجميع جهود العلماء العرب ممن يمكنهم أن يشاركوا في ترجمة العلوم والآداب من اللغات الأوروبيــة إلى اللغة العربيــة تنبــع من إدراكنا العميق بأننا نعاني من نقص شديد في عدد المؤهلين علميا ولغويا لتحمل عبء هذه المسئولية الخطيرة. ويكفي أن نشير إلى شكوى طه حسين من انحطاط مستوى أساتذة الأدب العربي في »دار العلوم« في النصف الأول من هذا القرن، حيث يقول: »وكيف تتصور أستاذا للأدب العربي لم يلم، ولا ينتظر أن يلم بلغة أجنبية ولا بأدب أجنبي، ولا بمنهج من مناهج البحث عن حياة اللغة وأطوار الأدب؟! وكيف تتصور أستاذا للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟«. وإذا كان هذا هو حال الأساتذة، فلنا أن نتخيل كيف يكون حال الطلبة. ووصف إبراهيم مدكور الحقائق المؤلمة والأوضاع المحزنة الخاصة بمشكلة الترجمة، حيث يقول: »وحياة الترجمة تتوقف على التمكن من اللغة الوطنية ولغة أو أكثر أجنبية، وهنا نلحظ مع الأسف الشديد أن مجيدي اللغة [العربية] قليلون، وأكثرهم لا يعرف لغة أجنبية. أما مجيدو اللغات الأجنبية فأخشى أن أقول انهم أصبحوا يعدون على الأصابع. وقد كانت لدينا وفرة منهم في الثلاثينات والأربعينات. والعناية باللغات بوجه عام في تدهور وتراجع ملحوظ. ويكفي أن نشير إلى أنـا نشكو مر الشكوى من عدم إقبال الشباب على لغتهم الوطنية [العربية]، وولوعهم بها، ورغبتهم في التمكن منها. وقد أضحت قراءاتهم قليلة، وإذا بدا لهم أن يقرأوا اتجهوا نحو الخفيف من المكتوب والمنشور. وكثيرا ما تعجز أقلامهم عن أداء المعنى الذي يريدون توضيحه بلغتهم الوطنية. ولا سبيل لأن نتحدث عن اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية والألمانية، فإنها لا تنال العناية التي تستحقها في مدارسنا الأميرية« اهـ. ويشكو إبراهيم مدكور من ضآلة عدد الكتب المترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية في السنوات الأخيرة.
ويؤكد زكي نجيب محمود على أهمية اللغة في بناء الحضارات وانطلاق النهضات حيث يقول: »لست أتصور لأمة من الأمم ثورة فكرية كاسحة للرواسب، إلا أن تكون بدايتها نظرة عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها، لأن اللغة هي الفكر، ومحال أن يتغير هذا بغير تلك ...«. ويطول بنا الحديث إذا استعرضنا آراء أعلام الفكر العربي حول اللغة العربية وتردي مستوى الإلمام بها لدى المتعلمين العرب، وليس هذا قصدنا من هذه الســطور القليلة، إنما هدفنـا هنـا هو الإشــارة إلى حقيقة ملموسة، ولفت نظر القارئ إلى حالة الانحطاط والجهل التي وصلنا إليها، وضرورة أن نبدأ ببرنامج إصلاحي وخطة طموحة لمكافحة الجهل ونشر العلم وترجمة العلوم والانتصار للحق والحكم بالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٩- من أهم الكتب التي نسعى إلى ترجمتها من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية تلك الدراسات القيمة التي ألفها أساتذة الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية عن الحضارة الإسلامية، وتطور العقيدة الإسلامية، والفكر العقلاني في الإسلام، والمدارس النحوية وعلاقتها باتجهات تفسير القرآن، ومدارس الفقه الإسلامي. وذلك اقتناعا منا بإن الحاجة إلى الفهم العقلاني الصحيح للإسلام صارت ملحة، وأن العلماء الشباب من شعوبنا ينبغي أن يتسلحوا بثقافة دينية عقلانية متفتحة تكون لهم عونا في تقرير الجانب الأخلاقي من العلوم وكل ما يخص علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقة الإنسان بالخالق، فضلا عن الآداب والأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها العلماء. وفوق كل ذلك فإن ترجمة الدراسات الجيدة التي

عالج فيها أساتذة الغرب موضوعات إسلامية إلى اللغة العربية سوف تساهم إسهاما عظيما في تعريفنا بتاريخنا، وإلمامنا بآثار عظماء الفكر الإنساني من المسلمين، وتأصيل صلتنا بحضارتنا، وتقوية وعينا بهويتنا. ونحن ندرك تمام الإدراك أن بعض هؤلاء الإساتذة الغربيين ممن كتبوا عن الإسلام قد ارتكبوا حماقات كثيرة وجهالات فظيعة، وبعضهم وضع السم في العسل وحرّف الحقائق وشوّه الأمور بدافع من الحقد والهوى، إلا أن كل هذه الجهالات والانحرافات لن تعوقنا عن الانكباب على هذه الأعمال واستخراج الجيد منها والاستفادة منه، وتمييز الصالح من الطالح دون أن نهوي بأنفسنا إلى مستوى أهل الجهل الذين لايجيدون إلا الشتم ولايعرفون إلا الهجاء. فنحن نعلم أن أساتذة الدراسات الإسلامية الغربيين يتمتعون بظروف أفضل من تلك التي يتمتع بها العلماء العرب. ويكفي أن نقارن بين مرتبات هؤلاء وأولائك. أما من ناحية العقول، فهم لا يزيدون عن علمائنا في شيء. وهذا من فضل الله وعدله ورحمته بنا. فإذا أردنا أن نضع أسسا لنهضتنا، ودعائم لتقدمنا، فأول ما ينبغي عمله هو إنصاف علمائنا ماديا، وتوفير وسائل الرعاية والراحة لهم، وانظروا كيف ستكون النتائج بعد ذلك.

ولكي نعطي القارئ فكرة عامة عن فائدة نقل الدراسات الإسلامية التي وضعها أساتذة غربيون إلى اللغة العربية، نستشهد بقول الأستاذ محمد كرد علي عن انتاج السيد كرينكو، حيث يقول: »وقد نشر السيد كرينكو عشرات من الكتب والرسائل والمقالات بالعربية والألمانية والإنكليزية ما لو نشر بعضه مجمع علمي [عربي] في ثلاثين سنة لعدّ ذلك من مفاخره«. ونود أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى بعض أوجه انحطاطنا ومظاهر تبعيتنا، ونكتفي بذكر مثال واحد، ولكنه كفيل بتحريك المواجع، وإراقة الدموع. ونعني بذلك أن الغربيين هم الذين أرّخوا للعلوم والآداب في الإسلام. وهذا يعني أن الباحث العربي الذي يريد أن يكتب في موضوع من موضوعات الأدب العربي في العصر الجاهلي أو الأموي أو العباسي، فهو مضطر إلى الرجوع إلى موسوعة بروكلمان عن »تاريخ الأدب العربي«، ومن يبحث من علمائنا في موضوعات الطب في الإسلام، فلابد له من مراجعة أعمال العالم الألماني مانفرد أولمان والعالم التركي فؤاد سزكين في هذا المجال. ومن يبحث من أساتذتنا في العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب، وصورة المسلمين في أوروبا، فالعودة إلى كتابات نورمان دانيل وجاك فاردينبورج لا مناص منها. وكتابات لويس ماسينيون وأنا ماري شيمل في التصوف الإسلامي ضرورية لمن يعالج هذا الموضوع من باحثينا. وأعمال ولفيرد ماديلونج ويوسف فان إس في العقيدة وعلم الكلام لا يمكن للمتخصص العربي أن يستغنى عنها إذا شاء أن يبحث في هذه الموضوعات. وموسوعة العلامة فؤاد سزكين، وحيد دهره وأعجوبة عصره، »تاريخ التراث العربي« لا غناء للباحثين في تاريخ العلوم في الإسلام عنها. وقد تم ترجمة بعض أجزاء هذا العمل العملاق وتولت السعودية نشرها. ونحن نذكر قائمة صغيرة لمجرد إعطاء القارئ نبذة بسيطة عن أعمال هؤلاء الأساتذة، مع توضيح ان مؤلفاتهم كثيرة، ودراساتهم غزيرة، وأعمالهم لا تعد إلا بالآلاف:

١- يوسف فان إس:يقوم حاليا بتأليف موسوعة كبرى لتاريخ تطور العقيدة الإسلامية.
٢- هاري ولفسون: فلسفة علم الكلام.
٣- أنـا ماري شيمل وآخرون: الإسلام.
٤- ولفيرد ماديلونج: الإمام القاسم بن إبراهيم.
٥- لويس ماسينيون: عذاب الحلاج، شهيد التصوف في الإسلام.
٦- روتراود فيلانت: صورة الأوروبيين في الروايات والمسرحيات العربية الحديثة.
٧- فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي.
٨- مانفرد أولمان: الطب في الإسلام.
٩- جورج سارتون: تمهيد لتاريخ العلم.
١٠- ا. ب. يوشكيفيتش: تاريخ الرياضيات في العصور الوسطى.
١١- إرنست ماير: تاريخ علم النبات.
١٢- كارل شميدر: تاريخ الكيمياء.
١٣- ريتشارد والزر: انتقال الفلسفة اليونانية إلى العرب.
١٤- موريس شتاينشنايدر: فهرس الكتب العربية المؤلفة في المطاعن والدفاع الديني بين المسلمين واليهود والنصارى.
١٥- نفسه: الترجمات الأوروبية من اللغة العربية.
١٦- جاك فاردينبورج: الإسلام في مرآة الغرب.
١٧- مونتجومري وات: مقدمة العالم بل للقرآن.
١٨- برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا.
١٩- يوهان فوك: الدراسات العربية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين.
٢٠- تيودر نولدكه: تاريخ القرآن.
٢١- فرنر إنده: الأمة العربية والتاريخ الإسلامي.
٢٢- تيلمان ناجل: انتصار العقلانية في الإسلام، ثم هزيمتها في القرن الحادي عشر.
٢٣- ج. جوينبل: صحة الأحاديث النبوية.
٢٤- نورمان دانيل: الأسلام والغرب.
٢٥- نفسه: العرب وأوروبا في القرون الوسطى.

٢٦- فرانشيسكو جابريالي: سلطة الرسول.
٢٧- نفسه: محمد في أوروبا.
٢٨- فرانس التهايم وروت ستيل: العرب في العالم القديم.
٢٩- ايجناتس جولدتسيهر: دراسات محمدية.
٣٠- رودي بارت: محمد والقرآن.
٣١- تــور أندريا: حياة محمد وعقيدته.

إن ترجمة هذه المؤلفات وغيرها من آلاف الدراسات التي وضعها علماء الغرب سوف تتيح لنا الفرصة ليس فقط لفهم أنفسنا، وتوثيق علاقتنا بثقافتنا، وتعميق نظرتنا إلى ديننا، بل أيضا لفهم عقلية الغربيين، وتحليل تاريخهم الاستعماري، وبحث الجانب الاستغلالي في سياساتهم. ذلك أن التخلص من تبعيتنا للغرب، وتحقيق استقلالنا الوطني، والوصول إلى مرحلة الاعتماد على الذات، كل ذلك لن يتم لنا تحقيقه إلا إذا درسنا سياسات الغرب، وعرفنا أهدافه، وألممنا بتاريخه، وأتقنــّا التعامل معه.